(٩٨)

"اتباع وتقديس"

استيقظ مبكرًا من نومه للحاق بالركب المسافر من عالم الدنيا، وما تحويه من ذخائر الفتن ونفائس النعَم، ملقيًا وراء ظهره ما أثقلت به كاهله من أحمال همومها وتبعات مشاغلها، ليشد الرحال متجهًا إلى عالم جُلاسه يجمعهم مديح الأتقياء، والتعلق بالأولياء، رغبةً فى الوصول لخالق الأرض والسماء. كان الركب مليئًا بالمسافرين مثل كل عام، وكان هو من بين من جدوا فى التعلم والتلقى، وجاهدوا فى التأمل والتدبر، فلم ينكر على مخالفيه سوى المغالاة فى تقديس البشر، والتعلق بكراماتهم دون السعى للاقتداء بهم. كان يرى ويسمع من يستنجد بهم ويتمسح بأضرحتهم، ومع ذلك لم يجرؤ أن ينهر أحدًا منهم أو يتهكم عليه. كان دائمًا يلتمس لهم العذر، ويشفق على حالهم، محاولاً البحث عن مخرج لهم من تلك المصيدة، التى غرتهم بحُسنِها وبهائها حتى أوقعتهم فى شباكها طمعًا منهم فى خيراتها.

كان الأمل يراوده دائمًا فى أن يتغير حال هؤلاء من الانسياق وراء الخرافات إلى البحث عن الحقائق والتجليات، ومن الانغماس فى الملموسات إلى الانجذاب للمحسوسات، ومن الرغبة الملحة فى التعلق بكل ما هو مجسَّد ومصوَّر إلى القدرة على استيعاب سمو الغيب وارتفاعه عن كل تصوير صاغته

عقول السابقين، تلبية لما رضى به هواهم من تصور ذهنى سهَّل عليهم الغَى ومكَّنهم من البغى.

وفى كل مرة كان يلتقى فيها معهم، كان يعلم جيدًا أن آماله لهم لا تكفى وحدها للتغيير من سلوكياتهم، أو للتعديل من قناعاتهم، وأنه لابد من سعى دءوب وعملٍ جاد ينتشل هؤلاء من بئر الحاجة الملحة إلى طلب المعونة من البشر، ويرفع بهممهم إلى الاستنجاد دائمًا وأبدًا بخالق البشر وحده دون غيره.

كان مقتنعًا بأنه إذا تبدلت الأفكار وتغيرت المفاهيم والقناعات، فستتغير حتمًا السلوكيات، وأنه لن تحل أية فكرة مكان أخرى بسهولة ويُسر، بل إن ذلك الإحلال يتطلَّب عزم كل ذى قلب يرغب بصدق فى أن يفتح عقله بإرادته الحرة ليعيد النظر فى قناعاته التى لم يفكر فيها من قبل قط.

ولن يتأتى ذلك التفكير الحر إلا لبشرٍ قادرين على إزالة أية عُصابة توضع على أعينهم كى تمنعهم من الرؤية الواضحة، وتجبرهم على أن يظلوا تابعين طوال الوقت لا يبحثون إلا عن من يمسك بأيديهم ليقودهم فى طريقهم، ولا يترك أيديهم إلا عندما تصل إلى مكانٍ واحدٍ فقط ما أن تتلمسه متكأة عليه إلا وجدت عنده متبوعيهم أنفسهم، ولا أحد سواهم.

ولن يستطيع الرؤية بوضوح إلا كل من يُقدر معنى الحرية، ويعرف قيمة العقل، ويقدس المساواة بين البشر فيما بينهم، وينكر كل تبعية عمياء، ويدرك كنه اقتراب الخالق وقربه من مخلوقه، وحقيقة التقرب إلى الرقيب القريب وكيفية الاستعانة به، ويلتمس فى حياته النجاة لنفسه بنفسه بلا وسيط أو وكيل أو شفيع أو كفيل.

وفى هذا العام قرر ذلك المسافر إلى الله وهو فى رحلته إليه أن يرشد غيره من المسافرين، ربما أراد أحدهم أن يلحق به فى دربه الذى اختاره لنفسه بنفسه، فكتب عبارة قصيرة فى لفافات ورقية صغيرة، وقام بوضع كل واحدة منها فى يد كل من يقابله فى رحلته. وكانت تلك العبارة التى كتبها تحوى كلمات قليلة للذكرى وللتذكير، وهى: "ادعونى .. أستجب لكم، واذكرونى .. أذكركم".